تاريخ الحروب الصليبية

تأليف رنسيمان

RUNCIMAN : *A History of the Crusades*
(Cambridge University Press, 1951)

هذا هو الجزء الأول من تأليف كبير فى موضوع ضخم ، وهو الحروب الصليبية ، ويبدو واضحاً من قراءة هذا الجزء أن الأستاذ رنسيمان عكف على دراسة هذا الموضوع فى صبر علمى خارق منذ سنين ، وله عداه مؤلفات ممتازة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها .

وفى نقد الأستاذ توينبى لهذا الجزء الأول شرح لمسألتين هامتين للمشتغلين بتاريخ العصور الوسطى خاصة ، وللمشتغلين بالتاريخ عامة ، وهما : أولاً أن معظم مؤرخى الحروب الصليبية أوربيون غربيون ، بدأوا حياتهم العلمية فى ميدان التاريخ الأوربى الغربى ، واعتبروا الحروب الصليبية جزءاً من هذا الميدان ، أى أن بلاد المسيحية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) ، وبلاد المسلمين كذلك ، ليست سوى مسرح لأعمال الصليبيين ، وأن أهل هذه البلاد — مسيحيين شرقيين ومسلمين سنيين وشيعة — ليسوا سوى كتل بشرية وظيفتها الانهزام والخضوع والتبعية أو الفناء أمام الحملات الصليبية . والواقع أنه منذ أيام المؤرخ فيلكن الألمانى ، والمؤرخ الفرنسى ميشو ، لم يشذ عن هذه القواعد الصليبية العامة من المؤرخين الأوربيين الغربيين إلا القليل ، أمثال ستيفنسن وشالاندون وبرهييه ورنسيمان مؤلف الكتاب موضوع هذا النقد .

أما المسألة الثانية التى شرحها توينبى ، فهى أن الموضوع التاريخى الواحد يمكن دراسته علمياً من عدة زوايا مختلفة ، فتخرج الصورة فى جميع الأحوال واحدة ، من حيث الموضوعية والسلامة التاريخية ، ولكنها تتراءى مختلفة فى عرضها لا جوهرها ، من حيث المنظور التاريخى ، وهو ما لا بد منه قطعاً ، كما تتراءى المجسمات من القدور والآنية فوق الكراسى مختلفة المنظور والظل من

مختلف المواقف والمقاعد فى حجرة الرسم .

والقارئ لهذا الكتاب لا ينبغى له أن ينتظر جديداً من الحقائق إلا فى التفاصيل ، فأجيال المؤرخين الأوربيين الغربيين لم تترك من موضوع الحروب الصليبية ناحية أو مرحلة إلا درستها أكثر من مرة . على أن هذا الكتاب بالذات يمتاز بأنواع من الجدة والابتكار ، أولها استطاعة المؤلف أن يعتصر مجهودات هذه الأجيال كلها اعتصارا علمياً ، على اختلاف لغاتها ، وأن يخرج من هذه العملية الجهيدة بمادة نهائية شاملة جامعة لتاريخ الحروب الصليبية .

واستقامت للمؤلف فرصة مزدوجة نادرة ، وهى أنه تعلم فى غرب أوربا ، وانصرف إلى دراسة التاريخ البيزنطى ، وعاش فى إستانبول عيشة الباحث المنصرف إلى البحث الهادئ عدة سنين ، فاستطاع بذلك أن يطل على موضوع الحروب الصليبية من « شباك » مشرف تاريخياً وجغرافياً على الجهات الأصلية الأربع لموضوعه ، إن صح هذا التعبير هنا . ولذا جاء منهجه فى الحروب الصليبية غير مسبوق إليه ، وهذا هو النوع الثانى من الجدة التى يمتاز بها هذا الكتاب ، إذ بدأه المؤلف من استيلاء المسلمين على فلسطين والشام أيام الخلفاء الراشدين ، وامتداد الدولة الإسلامية إلى معظم غرب آسيا ومصر وشمال إفريقية ، مما غير الموازين السياسية والتوزيع الدينى منتصف القرن السابع الميلادى . ثم تتبع المؤلف حوادث التصادم السياسى والحضارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى تفصيل تاريخى محمود ، ووقف وقفة وصفية طويلة عند حركة الحجيج التى أتت بأفراد وجماعات من المسيحيين من كل فج أوربى غربى عميق لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة بالشرق ، وللتبرك بمخلفات المسيح والقديسين بأشتات المدن الشرقية . جاء أولئك الأفراد والجماعات منذ القرن السابع الميلادى من فرنسا الميروفنجية ، وإنجلترا السكسونية ، وألمانيا الإمبراطورية ، وإيطاليا مركز البابوية الناشئة ، حتى إذا كان القرن العاشر الميلادى ازدادت هذه الحركة حتى بلغت بعض جماعات الحاج آلافاً مؤلفة من رجال ونساء وأطفال من جميع طبقات المجتمع الأوربى الغربى ، وظلت هذه الحركة تسير سيرها الدافق إلى أغراضها التبركية وتعود إلى مستقراتها وأوطانها الأوربية الغربية فى رضى وأمن وطمأنينة ، بفضل ما ساد الدولتين الفاطمية فى مصر والشام والدولة البيزنطية فى البلقان وآسيا الصغرى وقيليقية من علاقات حسن الجوار والتسامح

الناشىء من مبادلة المنافع الاقتصادية .

ثم هبط السلاجقة الأتراك إلى أقاليم غرب آسيا ، وأعقبهم أتباعهم من أصناف التركمان ، فاستولى هؤلاء وأولئك على كثير من أقاليم الدولة البيزنطية ومدنها ومعاقلها فى آسيا الصغرى ، مثل قونية ودوراليوم ونيقية ، كما استولوا على كثير من أقاليم الدولة الفاطمية ومعاقلها الحصينة بالشام ، مثل حلب وحمص وحماه ودمشق وبيت المقدس . وبسبب ما طرأ على الأوضاع السياسية من تغير وقلق نتيجة انتزاع الدولة السلجوقية هذه الأجزاء الهامة من أطراف هاتين الدولتين غدا الحج المسيحى من أوربا عبر آسيا الصغرى والشام مركباً صعباً لا لقيام الدولة السلجوقية الموحدة المهيبة المتحمسة لحرفية شرائعها الدينية ، بل لذهاب الوحدة السياسية عن هذه الدولة وتفككها واضطراب منابع السلطة والنفوذ فى دويلاتها فضلا عما طرأ على الدولة الفاطمية من تفكك من نوع آخر . ومع هذا لم ينقطع تيار الحج من أوربا ، وفى هذا دلالة لا على دوام روح التقوى بين الناس فى غرب أوربا فحسب ، ولا على خطأ القول بأن تعصب الدولة السلجوقية الموحدة أو دويلاتها المفككة منعت الحج المسيحى إلى فلسطين منعاً باتاً ، بل على دوام إمداد المجتمع الأوربى الغربى بقصص حقيقى عن الشدائد والتضييقات التى وقعت لكثير من الحجاج المسيحيين ، وخلقت فى أوساطهم تفكيراً فى تخليص الأماكن المسيحية المقدسة والطرق والمسالك المؤدية إليها من أيدى المسلمين .

ونوع ثالث من الجدة فى هذا الكتاب : تحوّل المؤلف من موضوع الحج المسيحى وأثره فى تطور الفكرة الصليبية إلى ميدان الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا ، وتطور الحوادث فى هذا الميدان من حركة مقاومة مسيحية ضد سيادة إسلامية إلى حركة صليبية عامة تزعمتها البابوية والديرية الكلونية ، وأسهمت فيها جماعات كبيرة من الفروسية الأوربية ، على رأسها زعامات مشهورة من شمال إيطاليا وبرجندية وجنوب فرنسا . وتشجيعاً لهذه الحركة أفتى البابا جريجورى السابع (هلدبراند) بأن البلاد التى يستولى عليها فرسان غرب أوربا من المسلمين حلال لهم يتملكونها وأبناؤهم من بعدهم ، كما دعا البابا أربان الثانى جميع الراغبين فى الحج إلى الأماكن المسيحية بالشرق أن يحجوا حجيجاً عسكرياً بسيوفهم إلى إسبانيا ، أو أن يوفروا ما يتطلبه السفر

إلى فلسطين من المال لإعادة بناء المدن التى خربتها الحروب الإسبانية ضد المسلمين . (انظر ص ٩٠ – ٩٢ من الكتاب) .

يتضح من ذلك أن الحروب الصليبية بمبناها ومعناها فى المصطلح التاريخى بدأت فعلا فى أوربا قبل موعدها فى كتب البعض من المؤرخين السالفين ، وأن الفروسية الأوربية اشتركت فى هذه الحروب ، وأن البابوية تزعمت الدعوة إليها قبل خطبة أربان الثانى فى المجمع الدينى بمدينة كليرمنت بفرنسا سنة ١٠٩٧م. وهى الخطبة التى يصرّ أولئك البعض من المؤرخين وأشباههم أن يجعلوا منها سبباً وفاتحة لعصور الحروب الصليبية . والواقع أن البابا جريجورى السابع فكر تفكيراً جدياً فى توسيع هذه الحروب التى أشعلتها الدول الإسبانية المسيحية واشتركت فيها الفروسية الأوربية الغربية بنصيب متصل ، كما دعا دعاية جدية لامتداد هذه الحروب بحيث تشمل الأناضول، وذلك بعد أن غدا تفكك الدولة السلجوقية خطراً أكبر على الحجاج المسيحيين وفرصة أعظم للنصر فى آن واحد . وشجع البابا على المضى فى هذا التفكير وهذه الدعاية مدة ما بدا من أمل فى قبول البيزنطيين توحيد الكنيسة البابوية (الكاثوليكية) والكنيسة البيزنطية (الأرثوذكسية) تحت التاج البابوى . غير أن توحيداً لم يحدث ، وجاء البابا أربان الثانى فاهتم لهذا الأمل بالذات ، وفاوض بشأنه الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كرمنين ، واستقبل سفراءه ووعدهم بدعوة الفروسية الأوربية الغربية إلى الدخول فى جيوش الإمبراطورية البيزنطية لدفع أمراء السلاجقة عن آسيا الصغرى وغيرهم من أعداء الإمبراطورية فى البلقان : وفى مقابل ذلك وعد السفراء بقيام الإمبراطور على إزالة ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من أسباب التباعد والكراهية . وبينما البابا فى طريقه من بياتشنزا بإيطاليا إلى كليرمنت بفرنسا لأمور تتعلق بالتاج الفرنسى والشئون الكنسية الفرنسية نبتت فى رأسه ونضجت فكرة إثارة أوربا كلها لحرب صليبية جامعة ، ضد المسلمين فى الشرق ، لا لمساعدة الدولة البيزنطية فقط . وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م خطب أربان خطبته المشهورة فى مجلس كليرمنت ، ولقيت دعوته إلى حرب صليبية جامعة من الحماسة أكثر مما انتظر لأنها فكرة طالما جالت برءوس زعامات سابقة ، حتى إذا انفض المجلس انتشر الأساقفة فى غرب أوربا يدعون دعوة البابا ، كما انتشر المتطوعة من الرهبان فى جوف المجتمع

الأوربى يريدون خدمة هذه الدعوة ، ومن أولئك كيوكيو — أى بطرس الصغير الذى اشتهر باسم بطرس الناسك ، وغيره من الزعماء « الشعبيين » الذى اجتذبتهم شخصية بطرس القميئة الساحرة ، أمثال والتر الفقير وجوتشوك .

وإذا كانت أبعاض من هذه الحقائق معروفة تمام المعرفة فى مختلف المؤلفات الخاصة بالحروب الصليبية ، فالجديد هنا — وهذا هو النوع الرابع من الجدة فى هذا الكتاب — أن هذه الحقائق المبعثرة فى عدد من الكتب صارت معروضة عرضاً نهائياً فى كتاب واحد ، مع استناد المؤلف لا إلى المراجع الأصلية الغربية فحسب ، بل إلى المراجع الأصلية البيزنطية كذلك ، وهو ما يمتاز به هذا الكتاب من أوله إلى آخره . ثم إن القارئ لا يكاد يصل مع المؤلف إلى حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى آسيا الصغرى حتى يرى الحواشى مشيرة إلى مراجع تركية وأرمنية وعربية أصلية ، فضلا عن المراجع اللاتينية واليونانية التى تقدمت الإشارة إليها ، وفضلا عن المراجع الحديثة فى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية .

وتتضح الجدة فى صورة أخرى بهذا الكتاب من تتبع المؤلف أدوار الحملات الصليبية الشعبية التى سبقت الحملة المعروفة بالأولى — وهذا هو النوع الخامس من الجدة . ووصلت هذه الحملات إلى القسطنطينية بزعامة بطرس الناسك وغيره ، وأصرت على العبور إلى آسيا الصغرى استفتاحاً للحرب ضد المسلمين قبل وصول الجيوش المنظمة ، ولقيت حتفها إلا قليلا من رجالها على يد المسلمين عند الشاطئ الأسيوى لبحر مرمرة شمالى نيقية ، وبطرس الناسك غائب عنها فى القسطنطينية . على أن خاتمتها هذه لم تذهب هباء ، إذ فتحت عيون الزعماء والقادة فى الحملة الصليبية الرسمية لما سوف يلقون من المقاومة ، وما سوف يحتاجون إليه من معرفة بجغرافية آسيا الصغرى . وعاش بطرس الناسك وسار مع هذه الحملة الرسمية عبر آسيا الصغرى ، وشهد حوادث الصليبيين حول إنطاكية ، وخارت قواه واستولى عليه الخوف وفرّ هارباً من الميدان ، ثم عاد إلى الظهور مرة أخرى بعد استيلاء الصليبيين على إنطاكية ، وكفر عن خطيئة الهرب بالقيام بالسفارة بين زعماء الحملة والأتابك كربوجا أمير الموصل الذى كان أول الشخصيات الإسلامية التى وقفت للصليبيين بأطراف الشام ، وهددت زحفهم تهديداً خطيراً . (انظر ص ص ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ — ٢٤٧ من الكتاب) .

وثمة مواضع أخرى جديدة فى هذا الكتاب ، وهى النوع السادس من الجدة فى تأليفه ، ومنها شرح المفاوضات التى دارت بين الصليبيين والدولة الفاطمية حول مشروع خلاصته أن يقنع الصليبيون بما يفتحونه من البلاد الشامية الشمالية ، وأن يتركوا فلسطين لتستولى عليها الخلافة الفاطمية من أيدى السلاجقة ، وأن يساعد الفريقان بعضهما بعضاً لتحقيق ذلك على حساب الأمراء السلجوقيين المسلمين (انظر ص ٢٢٩ — ٢٣٠) . ومنها كذلك عناية المؤلف بشرح أنواع المقاومة الإسلامية ومواضعها فى تفصيل منذ عبر الصليبيون بجيوشهم إلى آسيا الصغرى . (انظر ص ص ١٧٥ — ١٩٤) ، ومن أنواع هذه المقاومة وأشباهها فى الشام وفلسطين يتضح بعض السر فى سهولة الانتصارات الصليبية .

يتبقى بعد هذا كله نوع آخر من الجدة ، وهو الملحق رقم ١ (ص ٣٢٧ — ٣٣٥) حيث تناول المؤلف مراجع الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ومؤلفيها بالنقد والتحليل على طريقة الجرح والتعديل ، ثم الملحق رقم ٢ (ص ٣٣٦ — ٣٤١) حيث حلل المؤلف أعداد الجيوش فى هذه الحملة ، وبين أن هذه الجيوش التى لم تبلغ إعدادها فى الواقع ما بلغته فى حوليات المؤرخين المعاصرين احتوت على كثير من غير المحاربين ، وأن كثيرين من قادتها جاءوا إلى الشرق بزوجاتهم وأخواتهم وأولادهم ، مما يدل على أن بعض أولئك القادة الذين أسهموا فى الحروب الصليبية عامة بالمجىء إلى الشرق لم يريدوا لأنفسهم الثواب والتقوى وحسن المآب فحسب ، بل المكافأة الدنيوية والمجد ، وحسن العقبى السياسية بالإقامة فى إمارة أو مملكة شرقية بعيدة عن صخب المنافسة والتزاحم والتخاصم فيما بين الملكية والإقطاعية فى غرب أوربا . على أن هذه الدعوى لا تستند إلى الاستنتاج فحسب ، بل إلى حقائق استمدها رنسيمان من مواضى أولئك القادة فى أوربا ، قبل أن يتزعموا الحروب الصليبية فى الشرق .

محمد مصطفى زيادة